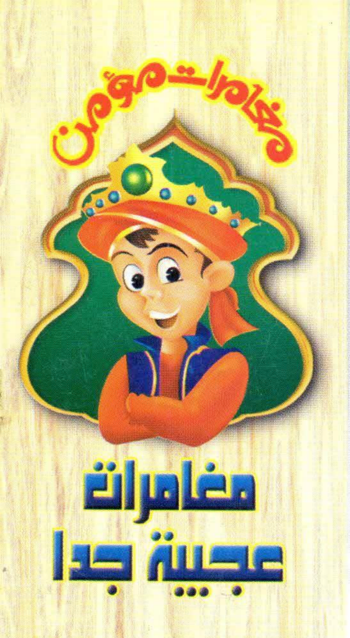

مغامرات مؤمن
جوهرة
75
الجزيرة النداهة
علاء الدين طعيمة
سيد عبد العزيز
دار الدعوة





٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية

تليفاكس: ٣٩٠١٩١٤ — ٣٩٠٧٩٩٨ / ٠٣

مغامرات عجيبة جداً

[٧٥]

جوهرة الجزيرة النائية

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

رقم الإيداع القانونى:	١٨٩٩ / ٢٠٠٧م
الترقيم الدولى:	5 - 429 - 253 - 977

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية

تليفون: ٣٩٠١٩١٤ - فاكس: ٥٩٠١٦٩٥

تليفون المؤلف: ٠١٢/٢٧٨٢٩٦٤ - ٠٣/٤٣٦٢٩٨٠

مغامرات مؤمن

جوهرة الجزيرة النداهة

تأليف:
علاء الدين طعيمة

رسوم
عبد الرحمن بكر





مغامرات عجيبة جداً..

قمة الفرح أن يعثر الإنسان على تاج أثرى عتيق خال من الجواهر، ولكن تكون قمة الإثارة والمتعة عندما تتابع وتقرأ مغامرات ذلك البطل وهو يسعى للعثور على جواهر هذا التاج، إنه يسافر فى رحلات عجيبة عبر البحار والأنهار، فيتعرض للأخطار والأهوال ويرى نماذج غريبة من البشر وعجائب من الإنس والجن والأحياء والأموات، وفى كل مغامرة - بعد العناء والصراع مع المكان والزمان- يفلح فى إضافة جوهرة جديدة إلى التاج.

فى مغامرتنا السابقة.. تمتعنا بالإثارة والتشويق وحبس الأنفاس، عندما استطاع مؤمن بمعاونة البحارة أن يصيدوا سمكة القرش الضخمة.

وذكرنا أن مؤمن بعد أن تنفس الصعداء.. نام فوق سطح السفينة ثم سقط فى الماء وظل نائمًا لم يستيقظ.

وهذه حالة لا يتمتع بها الكثير من الناس فى الحقيقة.. فهناك القلائل ممن يحيون حولنا يمكنهم النوم بينما لا يغرقون فى الماء.

وهؤلاء ممن يجيدون فن السباحة ورياضة الماء.. ويمكنك عزيزى القارئ أن تجرب هذا بنفسك.. ليس أن تنام وتنعس.. ولكن أن تطفو على سطح الماء ممدداً.. دون أن تشعر بالضيق ولا أن تخشى السقوط فى القاع.

وهذا فى فى رياضة السباحة يسمى بالطفو.. وهو أول ما يجب على من يرغب السباحة وتعلم رياضتها أن يتعلمه.. وفيه يرشدك المدرب إلى أن تلقى بجسدك فى حالة من الاسترخاء التام .. دون أن تشد أى جزء من جسدك.. وعليك أن تلقى رأسك للخلف حيث تنظر إلى السماء بطريقة عمودية.. لأنك لو نظرت إلى قدميك وثنيت رقبتك فسوف تسقط من فورك.

ولقد مرت بى حادثة شبيهة بما جرى لمؤمن ذات مرة.. فعند وصولى للمصيف على الساحل الغربى.. لم أتمكن من النوم كعادتى عندما أغير طبيعة حياتى ومكان نومى.. وفى الصباح رأيت البحر مثل السجادة المفرودة.. ولم أتمالك نفسى فجريت وغطست وسبحت

ثم استلقيت على ظهرى.. ويبدو أن النعاس داهمنى فى تلك اللحظة.. فالماء مثل فراش وثير والشمس دافئة كغطاء حنون.. فنمت وأنا على هذا الوضع فترة طويلة.. وعندما لطمنى بعض الماء فى وجهى.. أفقت.. فحمدت الله أن البحر هذا الصباح لا يتحرك بتياراته المعهودة.. وإلا كنت سأجد نفسى أنهض من هذا النوم اللذيذ وأنا فى عرض البحر.. وعرفت حينها أن الإنسان يمكنه النوم فى الماء.. وهذا ما يحدث لكثير ممن يتعرضون للغرق وينتظرون وصول النجدة.

لا علينا.. نريد الآن أن نعرف حكاية صاحبنا وبطلنا المحبوب مؤمن، بعد أن استيقظ فوجد نفسه فى عرض المحيط ولا أثر للسفينة ولا لغصن أو قشة تساعده.. والليل يبسط رداءه على الدنيا كلها فى هذا المكان.

فيالك من محظوظ يا مؤمن.. يا لك من واعد بالتجارب الشاقة.. إنى أرثى لحالك.

- أرجوك لا ترثى لحالى.. كل ما أحتاجه منك هو الدعاء عسى الله أن ينجينى من هذا المحيط والليل والسمك.

- لكن... ماذا لو طلبت منك يا مؤمن أن تخبرنا بمشاعرك؟

- اعتدت على مثل هذه المحن... وواجهت أصعب من ذلك..

- وماذا أنت فاعل الآن؟

- لولا البرد لقلت لك إن النوم كان لذيذاً.. وإننى أود العودة للفراش.. لكن البرد يشتد.

- هل ستقوم بالسباحة؟

- أستاذ عـلاء.. كيف بالله عليك تنصحني بالسـباحة... إلى أين؟.. هل أسـبح وأضيع جـهدى إلى وجـهة لا أعلمها.. وقد لا أصل بعد ذلك إلا للماء؟

- قلبى معك يا ولدى.. اسمع يا مؤمن.

- نعم يا أستاذ علاء.

- قلبى لا يـطاوعنى كى أكـتب عنك وأنـت على هذه الحالة.

- وماذا تقترح؟

- أقترح أن تتولى أنت إخبار القارئ المتلهف الآن بنفسك عما يجرى لك.. وأنا فى الحقيقة أشعر بحنين للنوم.

- أستاذ علاء.. أيعقل أن تتركنى فيما أنا فيه ثم تنام؟

- ماذا يمكننى أن أفـعل من أجلك يا مؤمن؟.. سـأدعو الله لك.

- سيدى.. أرجوك.. أنا فى محنة.

- أخبرنا يا مؤمن.. معذرة.. لا أتمالك نفسى.. سأنام.

- أستاذ علاء.. أستاذى.. يا إلهى.. يا رب.. تركنى الرجل ونام.. هو الذى وضعنى فى هذه الورطة.. هو الذى ألف القصة السابقة ثم رمى بى من فوق سطح السفينة.. ما العمل يا رب؟ يا أستاذ علاء.. أرجوك.. اكتب شيئًا يخرجنى من هذا اليم.

- خوخوخو..

- لقد نام.. وما العمل الآن؟.. أظن أننى سأعمل بنصيحته وأسبح.. ولكن إلى أين.. على كلٍ.. بعض السباحة لا تضر فقد أعثر على شىء أسند جسدى عليه فقد تعبت.

وهكذا أخى القارئ.. بعد أن تركنى المؤلف وحدى.. سبحت ولم أعثر على شىء.. ليس أمامى

سوى الماء الداكن بسواد الليل.. أظنك تسأل إذا لم تكن من أهل السباحة كيف يقف مؤمن فى الماء.. أقول لك: أن تكون مسترخيًا تمامًا.. وتحرك رجليك على شكل المقص للأمام والخلف بهدوء وبدون انفعال.. ستقف كثيرًا.. وإذا تعبت يمكنك الاستلقاء على ظهرك كما شرح لك المؤلف الذى تركنى وحدى. سأكمل لك ما حدث لى بعد ذلك.

كنت أحمد الله تعالى أن جعل المحيط هادئًا على عكس عادته الدائمة، فساعدنى ذلك على البقاء دون معاناة لأطول فترة.. وحتى نصف الليل وأنا على هذا الحال.. أستريح طويلاً ثم أسبح قليلاً.. وكن على يقين أخى القارئ.. أنك لو سقطت ذات مرة ضحية لإحدى السفن أو العبَّارات ذات الصلاحية المنتهية.. واضطرك

الحال للسقوط فى الماء وكان الماء باردًا.. فلا تظن أنك أنك إذا تحركت كثيراً ستدفأ.. هذا اعتقاد خاطئ.. لأنك بذلك تفقد جهدك وقوتك ومن ثم كل السعرات الحرارية اللازمة لتبقى على قيد الحياة.. فسيبرد جسمك بسرعة.. ولكن تحرك بلطف واحمل معك الكثير والكثير من الملابس.. وحبذا لو كنت مرتديًا سترة للنجاة.

ودون أن أخرج عن الموضوع والقصة والحكاية الغريبة التى مررت بها مرة أخرى.. أكمل لك.. فأنا أعرف أنك متشوق.

أما فى النصف الثانى من الليل؛ فى الحقيقة لم أشعر به.. لم أكن نائمًا.. بل على العكس.. شعرت أن تياراً ما يحملنى ويسرع بى.. فحمدت الله ودعوته فى الوقت ذاته ألا تكون دوامة أخرى.. ثم برد الهواء وأدركت أنها الريح

المبشرة بالعاصفة.. فيالها من عاصفة.. كنت فى الماء.. لا قارب ولا سفينة.. وشربت ماءً كثيراً.. فى الحقيقة.. لئن تكون خفيف الوزن أو حتى بوزن ناقلة جنود أو طائرات أو بترول.. فالموج العاتى أكبر من كل هذا.

أصبحت أطير فى الهواء ثم أغوص فى أعمق الأعماق ثم أرتفع ثم أنقلب ثم أنفرد فأسقط على وجهى ثم أتكور.. حتى دخل الماء من كل فتحات وجهى.. ولطمتنى موجة عاتية جبارة.. دخل الماء على أثرها بقوة مندفعًا فى أنفى.. ففقدت الوعى. ولم أتذكر أى شىء سوى أننى تلوت الشهادتين.. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله.. وهذا ما أحمد الله تعالى عليه كثيراً.. إننى دعوته فى كل أيام عمرى أن يجعل خاتمة عملى التوحيد ورضاه الكبير.. فلطالما كنت أقول

وأنا أتضـرع إليـه: «اللهم لا تقبـضنى إليك.. إلا وأنت راضٍ عنى كل الرضا.. من غيـر عذاب ولا حساب ولا بلاء فى الدنيا والآخرة.. آمين».

ثم غبت عـن الوعى بعد ذلك ولم أدر كيـف انقضى باقى الليل.. ولم يكن هناك عقل لى ليعرف هل أنا حى أم مـيت؟.. ولـم أشـعـر إلا وأنا أنجـرف مع الماء الذى حملنى ثم ألقى به علـى شاطئ رملى أبيض ناعم.. ولم أشـعر إلا بالشـمس تحرق وجـهى يساعـدها الملح الذى تشبع به جلدى.

بتثاقل كبير نهضت والماء مازال يتساقط من شعرى.. جـثـوت على ركـبتـى وكأننـى كنت بالأمس فى حلقـة لرجال أشداء كل منهم يحمل عـصًا غليظة وقد لقنونى درسًا على كل جزء من جسدى.



نهضت أنظر حولى.. ملابسى مبتلة.. حافى القدمين ولا عمامة ولا قبعة.. هل أنا فى جزيرة أم على شاطئ يحد بلاداً وعماراً أم ماذا؟ ذهبت إلى بقعة جافة من الرمل فجلست عليها واضعًا ركبتىَّ بين ذراعىَّ أنظر للبحر.. يبدو أننى فى الصباح الباكر.. فالشمس مازالت تعبر المشرق، خلفى مباشرة صخور عالية لا أدرى ماذا سأرى من فوقها؟ لابد أن أعتليها على أية حال.

لكن.. ليس الآن.. أنا مرهق.. أشعر بجوع قوى ملهب.. الماء المالح هو كل ما يملأ جوفى.. يزيدنى عطشًا فوق العطش.. لابد أن أخلع ملابسى حتى لا أصاب بالأنفلونزا.

عار يمشى فوق الرمال وحده إلا ما يستر عورته.. ينظر يمنة ويسرة.. هذا أنا.. تحركت على قدمىَّ بعد أن

نشرت ملابسى فوق صخرة تلهبها الشمس.. سرت عسى أن أجد شيئًا ذا معنى أو علامة تدل على أن أحدًا يعيش بالقرب من هنا. وظللت على هذا الحال.. أسير فوق الرمال.. تعترضنى بين الحين والآخر صخرة.. لكن لم يعترضنى إنسان.

الشاطئ ممتد.. وهذا ما بدأ يزعجنى.. إلى أين أجد النهاية.. لم أجد نهاية.. تعبت.. ثم قررت الرجوع إلى المكان الذى جئت منه.. ولا أدرى لماذا أظن أننى فى جزيرة.. وأننى مازلت فى عرض المحيط.. وليس وراء هذه الصخور العالية التى تنشق عنها الخضرة بكثرة سوى المحيط.

قررت أن أبحث عن طعام قبل أى شىء.. ثم بعد أن أتغدى أرى إن كنت سأتمكن من تسلق الصخور أو البحث عن مطلع هين إلى أعلى.

وجدتنى عند ملابسى ولم تكن قـد جفت بعد.. ماذا سآكل؟ هذا فى مـعظم الجزر التى زرتهـا أو قمت فيـها بمغامـرات، كان هناك نخـيل جوز الهنـد.. مالى لا أرى هنا أى شىء منها؟

كمـا أن فى الجزر التى مررت بـها من قبل كـان معى ناس.. أشخـاص أتحدث إليـهم ويتحـدثون لى.. أناس يجعلوننى أشعر بأننى ذو قـيمة أو فائدة .. الوحدة شىء مرعب مخيف وإن لذت لى فى بعض الأحيان.

نظرت للأشجار المتدلية غصونها من أعلى.. لا توجد شـجـرة واحـدة ذات ثمـار.. ما لـهذه الجـزيرة فـقـيـرة بالفاكهة.

تذكرت صنع الله فى الجزر التى مررت بها من قبل.. كنت أعثر على جوز الهند والمانجو واللوز.. إنها جزر لم

تطأها أقدام من قبل، فمن الذى زرع فيها أشجار الفاكهة والنخيل؟ سبحان الله الذى خلق كل شىء وجعل من كل شىء زوجين.

زوجين!!.. فى غالبية مغامرات كان يرافقنى أحد الناس.. نكون زوجين.. لكن هذه المرة.. أنا بمفردى.. وحدى.. الحمد لله رفيق من ليس له رفيق.. اللهم يا مؤنس كل وحيد.. يا صاحب كل فريد.. يا قريبًا غير بعيد.. يا غالبًا غير مغلوب.. فرِّج عنى ما أنا فيه.. وصل اللهم على سيدنا محمد... آمين.

مشيت من جديد.. ولا أدرى إلى متى سأظل أمشى.. اقترب الظهر أم ليس بعد؟

الصخور الضحلة متناثرة بكثرة على الشاطئ... يملأها الماء، هناك أشياء تتحرك.. أليس كذلك

يا مـؤمن؟.. أم.. أم أنـنى أهذى من التـعب. اقــتـربت وسرت فـوق الصخور الملســاء.. نعم.. لم أكن أهذى.. سرطان البحر..رأيت واحداً أو اثنين. سأل لعابى اقترب الأمل فى الطعام.. كيف أصيده؟ جريت وحملت غصنًا جافًا.. ليس مـعى خنجر لأجعله مدببًا فـأتمكن من صيد سـرطان البحـر.. مـا العمل؟... كـان مـستـفزا.. كـأنه يتـحـدانـى.. يجـرى من ثقب إلى كـهف.. يـشـعـر بى فـيـختـفى هنا وهناك.. هل أمـسكه بيـدى.. سـيـعض بكلاليبه أصابعى، إنهـا الملابس.. عدت أجرى وحملت قميصى.. وقمت بلفه حـول راحتى ثم بحذر أقترب من سـرطان البـحـر.. رأى ظلى فـحـاول الهـرب فى أحـد الشقوق.. الجوع كان أسرع منه فأمسكت به.. كان كبيراً يكفى لســد جـوعى.. فكيف بعـد ذلك آكـله ولم يكن

هناك ما أنضجه فيه ولا ما أشويه عليه.. منظره الشهى يسيل اللعاب.. لكن لم أتعود أن آكل شيئًا كهذا نيئًا.. لا بد أن أشعل نارا.

غرست السرطان فى غصن ناتئ من شجرة، ثم استدرت أبحث عن وسيلة أشعل بها النار.. والأمر بالغ السهولة لكن فى حاجة إلى صبر.. فإذا مررت بظروف مشابهة فاحرص ألا يأتى عليك الليل إلا ولديك نار.. جمعت حطبًا جافًا وصنعت به كومة ثم بحثت عن قطعة من الحطب أشد صلابة من غيرها.. والأمر يعتمد على قوة الاحتكاك.. فلما أخذت أحك القطعة الصلبة بأخرى بقوة وسرعة.. تولد عن الاحتكاك دخان.. فزدت فى قوتى وسرعتى، ثم وضعت أعشابًا جافة حول مكان الاحتكاك.. ومازلت مستمرًا إلى أن اندلعت

النار فى العشب الجاف، كنت أساعـدها بنفخات بسيطة من فمى.. اشتعلت الأعشاب الجافة ثم انتقلت النار إلى الحطب.. فـأصـبح لدى نار.. أخـذت أراعـيـهـا بعض الوقت كى لا تخـبـو.. ثم جـريت وأحضـرت سـرطان البحر فـوجدته قد مات فألقيـته وسط النار.. وبعد برهة تصـاعدت رائحـتـه اللذيذة.. فـجلست ألتهـمـه بنهم.. وكانت ملابسى قد جفت فارتديتها.. لاحظت أن الظهر قـد مر فـصليت الفرض.. وزاد سـرطان البحـر عطشى عطشًا.. فأين أجد الماء؟

فى معظم الأحيـان يظل المرء منتظراً لشى يشغله.. أو لمسئولية سوف يؤديها.. لكن فى جزيرة.. وحده.. يشعر أن الوقت ملك له.. لا أحد يسأله عن شىء.. ولا ينتظر منه أحد شيئًا.. أى شىء.



تحركت من جـديد أبحث عن الماء.. بعض الشواطئ مثل شاطئ مدينة الإسكندرية إذا قمت بالحفر فى الرمال على بعد أمتـار قليلة من ماء البحر المالح.. ستـعثر على ماء عذب على عمق بوصات قليلة.

حاولت حـفر الرمال فلم يـواجهنى سوى الصـخر.. أظن أننى لو تجولت أكثر فى الجزيرة فسأجد الماء.. دائمًا ما توجد مياه فى مثل هذه الأماكن.

حـدانى العطش لتـسلق التـلال الصـخـرية.. حـيث عـثـرت بين الأشـجـار على طريق طبـيـعى يصـعـد بى لأعلى.. وكان الأمر هينًا حتى هذا الحد.

الماء.. الماء.. الماء.. مـضـيت أبحث عنه حـتى طفت بالجزيرة كلها.. لكن مع أسفى الشديد.. لم أعثر عليه.. لا توجد هنا ينابيع.. ولا أحواض فوق الجبال تسيل منها

المياه المتــجـمـعـة من المطر.. ولا آبـار.. ولا شيء يبلل الشفاه الجافة والحلق المملح.

أمضيت النهـار كله وأنا على هذه الحال.. أبحث عن الماء.. لكنني لـم أوفق مع الأسف، أنظر إلى السـمـاء.. إلى صـفحـتهـا الزرقاء في هذا الصيف القاسي والحـر الشـديد.. فلا أجـد الغيـوم ولا المطر.. أعود فـأنظر إلى البحر.. كل هذا الماء!! كل هذا الماء لا يصلح للشرب.

قبيل الغروب عـدت إلى الشاطئ مرة أخرى وبدأت أؤهل نفسي للصـيام عن الماء.. فإذا مر بك مـوقفك هذا فـانو الصـيـام لوجـه الله تعـالـى.. هكذا سـيـزول عنك الشعور القهري بالحرمان والعطش.

كان هناك كـهف مررت به أكثـر من مرة.. آن الأوان لاستكشافه، فتحته الوحيدة مطلة على الشاطئ مباشرة..

لا يمكننى الدخول من تلك الفتحة معتدلا ولا منحنيًا.. حملت شعلة من النار ودخلت بجانبى.. إذ الفتحة ضيقة مع أن الكف فى الداخل متسع بما يكفى للاحتماء من البرد.. كما أنه يعلو الشاطئ بمسافة أظن أنها كافية لعدم دخول ماء البحر إليه أثناء المد.

الكهف رطب.. وضعت الشعلة بجانب الباب وتكورت فى ركن ثم رحت فى سبات عميق.. التعب الشديد والإرهاق يدفعان المرء للنوم فى أماكن يستحيل أن يستطيع النوم فيها لو كان مرفهًا منعمًا.

***

وهكذا مرت الليلة الأولى فى نوم عميق.. استيقظت قبيل الفجر بقليل.. أشعر أن فى حلقى بعض الشوك.. لا أجد لعابًا فى فمى ولا أتمكن من إنتاج تفلة واحدة

تهـون غـصـــة الحلق.. اسـتندت على الجــدار بجـانبى واعتـدلت وقـد خبت الشـعلة فلم يتبق منهـا غيـر وهج الجمر الضعيف.

أخـذت أجفف يدى فى مـلابسى بعـد أن استندت بهـا على الجـدار.. وفجـأة تنبهت لنفـسى.. لماذا ابتلت يدى؟.. إنه الجـدار. يا إلهى.. مـسـحت مـرة أخرى فـإذا به مـبـتل بالماء.. يا ربى.. يا ربـى.. أهو ماء عـذب أم مـاء البـحـر.. تذوقت أصابعى.. من شـدة العطش لا أدرى أهو عذب أم مالح.. مـسـحت يدى فى الجدار مرة أخـرى.. لحست يدى كلها.. إنه عـذب.. بالتأكيـد.. وكانت أول مرة فى حـياتى أمـد لسانى لجـدار من الصخـر الصلب الذى ينشع مـاءً لا أدرى مصـدره ثم آخذ فى لحس الصخـر.. لحست الكهف كله والماء.. ما أجـمله.. ما أبرده.. مـا أطيبـه.. تذكرت فى

مـغــامـرتى «العطش القــاتل»، إننى كنت ســأمـوت من العطش.. كنت مـتعـبًا ومنهكًا؛ فى سـفر وصـحراء ورياح متربة، وعثرت على واحة فى النهـاية بها عين ماء عظيمة.. يا إلهـى.. من أين يأتى هذا المـاء، من أين؟.. خــرجت مع بوادر الصباح أجرى إلى كومة النار التى أشعلتها بالأمس.. كانت ستـخبو.. حملت الكـثير من الحطب وسعـرّتها مرة أخرى، ثم حـملت شعلة كـبيرة وعـدت للكهف.. وأنرت داخله.. رأيت شـقـوقًا فى الجـدران لا تكاد تُرى بالعـين.. تنشع بماء عذب.. لكن ببطء شديد يكفى لتبخر الماء قبل أن يسيل على الأرض أو يتـجمع فى مكان.. إذًا بالجـزيرة ماء عـذب.. لكن كـيف أصل إليـه. أصبـح همى كله فى هذا النهار هو البـحث عن هذا الماء ولم أعد أفكر فى أى شىء آخر ولا حتى فى سبيل للخروج من الجزيرة.

وبمجرد أن مس المـاء لسانى حتى جـفت من اللحس جدران الكهف، وهذا أعطانى الأمل والقوة مرة أخرى.

فتشت فى كل مكان فيه فلم أر شـقًا ولا فتحة تؤدى إلى مكان آخـر. عـدت أخـرج ثم حـملت على نفـسى وصعدت أعلى التل والكهف أسفل منى، ثم لما لم أعثر على شىء؛ مشيت فى خط مستقيم بحذاء الكهف لأرى من أين يأتيه الماء.

عـثـرت على شق نائم فى الصـخـر.. لا يكاد يدخل أصـــابعى.. مع كـــونه طويلا لا أدرى أهو الحـــدس أم العطش يجعلنى أشـعر بالماء فى داخل هذا الشق.. لكن جـوف الشـق مظلم أسـود.. أحس بـالماء ولا أراه. أمـد أصـابعى فـلا ألمس إلا صـخـرا جـافًـا وإن كـان باردًا.. اعتدلت واقفًا فإذا اللـمعان الحبيب للنفس ينعكس على

الماء داخل الشق بضوء الشمس وقد ترقرق ثم اختفى.. الحمد لله.. الحمد لله.. الماء هنا.. هنا.. لكن كيف أصل إليه.. كيف يا ربى.. مددت أصابعى حتى كادت تنحشر يدى فى الشق.. الماء موجود.. لكنه بعيد.. لابد أن أكسر الصخور حتى أصل إليه.. لا شىء لدى.. لا مطرقة ولا فأس ولا قطعة حديد فى هذه الجزيرة.

عدت أجرى إلى الشاطئ.. حملت صخرة وقذفتها فى صخرة كبيرة.. تناثرت صخور كثيرة حادة.. حملت إحداها ثم بحثت عن جذع مناسب.. ومن أليافه المتدلية صنعت مطرقة حادة.. وصعدت التل بسرعة، وعند الشق وقفت أكسر الصخر بالصخر.. تكسرت المطرقة ولم يتحرك الصخر؛ سوى بعض التفتيت الذى لا يُذكر.

ازداد غضبى مع أن النسيم العليل والشمس والبحر والسماء الجميلة يهدءون من انفعالى كثيراً.. أريد أن أتمتع بهذه الأجواء.. لكن مع التهديد بالموت كلها تصبح سوداء قاتمة.. ومرعبة. أخذت أدور حول نفسى لا أدرى ما العمل.. كيف.. كيف يمكننى الحصول على هذا الماء الذى أكاد أراه بعينى ولا أحصل له.

وبما أن الحاجة هى أم الابتكار والاختراع.. فقد لاحت لى فكرة.. إذا ألقيت فى الشق حصوات صغيرة يمكنها أن تحتل الفراغ فيه وتدفع الماء لأعلى.. وبينما أنا أجمع الحصوات تذكرت أننى بذلك سأسد الشق.. وقد يغور الماء فلا يمكننى الحصول عليه.. رميت الحصوات من يدى.. ووقفت حائراً لا أدرى ماذا أفعل.. بحثت عن صخرة قوية وثقيلة ودحرجتها بمشقة حتى وصلت بها إلى مكان الماء..

وجلست أجدل من الألياف أحبالا طويلة وقوية.. وبقيت على هذه الحال حتى آخر النهار.. أذكر أننى لم أتناول طعامًا قط.. بل كنت منهمكًا فى عملى.. وربطت الصخرة الثقيلة بحبل علقته بغصن مرتفع وأخذت أرفعها عاليًا وأنا أشد الحبل، فهوت الصخرة وهوى معها أملى كله.. تحطمت الصخرة ولم يتحطم الشق اللعين. شعرت بيأس، وخارت قواى تمامًا.. وكنت فى جوع شديد.. قطفت بعض الأزهار من الشجرة، ورغم طعمها غير المستساغ.. التهمتها فأطفأت من عطشى وجوعى قليلاً.

عدت إلى الكهف مع غروب الشمس.. وانتظرت أفكر حتى صليت العشاء... ثم رحت فى سبات عميق وهكذا مرت الليلة الثانية.

***

قمت فى الصباح الباكر... مازلت ألحس جدران الكهف حتى أبقى على قيد الحياة، ولم أصل بعد إلى فكرة يمكننى بها إخراج الماء من الشق الصخرى.. ورحت أبحث فى أماكن أخرى عسى أن أجد الماء بطريقة أسهل.. لكن لم أجده.. وقررت ألا أنسى نفسى هذا اليوم وأن أبحث عن طعام.. وقد أصل إلى وسيلة لأخرج الماء أثناء ذلك.

وصنعت من الصخور الحادة مطرقة صغيرة وقوية وحادة.. ولم أدعها تفارقنى أبدًا.. واستطعت بها أن أصنع شوكة كبيرة من الأغصان.. سرت فى الماء الضحل أبحث عن صيد.

وتمكنت بسهولة من صيد سمكات كبيرة.. وشويتها على النار ثم أكلتها بشراهة ولم يعكر صفو هذه الوجبة الدسمة غير أننى لم أجد الماء لأشربه بعدها.

عظام السمك كبيرة ودسمـة، فطاب لى مصمصتها.. وتذكرت أمى وهـى تعطينى ساق البـهيمـة المسلوق فى الماء وتطلب منى أن أمص ما به من نخـاع لذيذ.. كدت أبكى لـمّـا تذكـرت أمى، ولا أدرى كـيـف تملكنى هذا الشجن.

ولا أدرى أيضًا كيف تكمن الأفكار حتى تأتيك فجأة كأنك تمد يدك فتأخذها من رق بين كتب كثيرة.

انتفضت ونسيت الشجن والسمك وألقيت ما بيدى.. لقد جاءت الفكرة.. نعم.. جاءت الفكرة يا مؤمن.. أيها الأحمق.. كيف تأخرت فى أخـذها؟ جريت فى الجزيرة أبحث عن ساق بهيـمة.. عفواً عن سيـقان الغاب.. وكم أحبك أيهـا الغاب.. كم أشتـاق إليك.. وفى جهة قـريبة وجدته.. حملت ساقًـا منه وحرصت على قطعها بشكل

أنبوب غير مسدود.. ها أنا ذا أيها الشق العصى.. ها أنا ذا أيها الماء.. جئت ومعى شفاطة.. وقفت أمام الشق أبتسم.. ثم وضعت فمى فى طرف الماصة والطرف الآخر دخل بسهولة فى الشق.. ثم شفطت.. ما ألذ الماء.. ما أطيب الماء.. ماء.. يا الله.. لك الحمد والشكر.. أخذت أمص وأشرب وأشرب حتى ارتويت وزدت حتى انتفضت.. ألقيت بالماصة جانبًا ثم استلقيت على الصخر بجانب الشق ألهث من كثرة الارتواء.

هذا هو الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه.. فيقول ربى أكرمنى.. وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه.. فيقول ربى أهاننى.. لكن لك الحمد يا ربى.. لم أقل يومًا إنك أهنتنى.. فنعمك علىّ الكثيرة أدرك بها دائمًا أنك تعطى بلا سبب.

وماذا الآن؟ الطعام متوفر بكثرة في أسماك البحر والسراطين.. والماء في الشق لا ينضب.. عندما يضمن الإنسان طعامه وشرابه فقد حصل على ثلث الدنيا.. لأنك كما تعلم.. إذا بات الإنسان آمنًا في سربه معافًا في جسده وعنده قوت يومه.. فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها.. والحمد لله.. أنا معاف في جسدي.. وأصبح لديَّ قوت يومي وأيام كثيرة قادمة.. ويبدو أنني مع ما أنا فيه من محنة مازلت آمنًا في.. في ماذا.. في سربي لا أحد معي.. في مكاني.. هذه الجزيرة لا ينتشر فيها غير النبات.. لم أر حيوانًا ولا زاحفًا ولا إنسانا ولا أثرًا لذلك.

أمضيت الليلة في التفكير ثم نمت.. وانتهت تلك الليلة.

***



في صباح اليوم التالي قمت وكلي نشاط.. أول ما فعلته: ذهبت للشق، اطمأننت على وجود الماء وشربت، ثم قررت أن أفعل شيئًا من أجل فراشي وغطائي.. لأنني أتجمد بالليل من شدة البرد.

ولأنني حرفي في الأصل.. وصنعتي هي معالجة الغاب والألياف لصنع السلال والمقاعد والتحف.. قررت أن أجمع أكبر قدر من الألياف والغاب وأتسلى في الوقت الطويل بعمل شيء ذي قيمة.

أكثر ما كان يخيفني ألا أرى سفينة.. أو لا يشعر بي أحد من جوّاب البحار.. سوف تسأل وتقول متحديًا.. لماذا لا تصنع لك قاربًا كما فعلت من قبل في مغامرات كثيرة.. أجيبك بأنك محق.. لكن لو شاهدت الشاطئ الذي انعزلت عنده ستعذرني.. فالأمواج العالية تضرب

الجزيرة من كل ناحية.. وهى صاخبة دائمًا عالية.. تهجم على الشاطئ مثل مجموعة من الذئاب فى قطيع جائع على بعض الحمير الوحشية الغافلة.

وهذا يعنى أننى فى حاجة إلى شراع حتى أتمكن من مقاومة الأمواج والتقدم رغم قوتها العاتية.. فمن أين لى بالشراع؟

الشراع يحتاج إلى غزل والغزل فى حاجة إلى قطن والقطن فى حاجة إلى بذر، أم أن الشراع يتواجد بلا سبب.. مثل حكاية البيضة والدجاجة.. الكثير من الحمقى يسألون سؤالا سخيفًا عندما يقولون لك.. من أتى قبل الآخر.. البيضة أم الدجاجة؟ ولو علموا أن البيضة لا يمكن أن تفقس إلا بوجود دجاجة لأدركوا أن الدجاجة هى التى خلقها الله تعالى قبل البيضة.. خلق

أولاً ديكًا وخلق للديك دجاجة والبيضة أتت بعد الديك والدجاجة.. فلا يمكن أن يأتى شراع بدون أن تتوافر بذرة القطن.. إلا إذا كان ذلك فى حالة واحدة.. سفينة غرقت بمكان ما.. فحمل الموج شراعها إلىّ وأنا لا أتمنى نجاتى بهلاك آخرين.

جمعت القدر اللازم من الألياف والقصب.. وساعتها لم أدخل للكهف عند الغروب.. بل جلست أمام النار أجدل الألياف.. كانت أمسية رائعة.. الذى عشته كان فى حاجة إلى دراسة، قد لا يتمكن المرء من محاسبة نفسه أبدًا، كون مثيرات الحياة كثيرة ومتلاحقة.. تجده يفزع من عمل لآخر ومن يوم لأسبوع لعام.. متى يتوقف ثم ينظر فيما مضى من حياته ثم يحاسب نفسه ويحدد كم الخير أو الشر الذى جناه فيها؟.

في مثل هذا الظرف الذى أصبحت أعيش فيه أجدنى أحاسب نفسى على كل ما مضى.. أتذكر كل خير فعلته وكل ذنب أذنبته.. أجدنى غير فرح بما أنجزته من طاعات وعبادات وخيرات.. لكن أجد ذنوبى كالجبل أحمله فوق رأسى ولا أدرى كيف أتخلص منه.

نعم.. الاستغفار والتوبة.. عسى الله أن يفرِّج عنى ما أنا فيه الآن. جدلت بكرة كبيرة من الحبال عندما داعب النوم جفونى.. حملت بعضًا من الألياف والأغصان الطرية إلى الكهف عسى أن أتوارى خلفها من شدة البرد... وهكذا كانت ليلة جديد فى الجزيرة، إنها: الليلة الرابعة:

***

كانت الرياح شديدة فى الخارج وأمطرت مطراً لا ميعاد له.. وفرحت -رغم البرد- أن الماء يزور الجزيرة.. وشعرت رغم ذلك بأمان كبير.. فماذا سيصيبنى من أهل الدنيا.. بكل مخلوقاتها وأنا فى جوف هذا الكهف الأصم.. حمدت الله تعالى.. ثم ذهبت فى سبات عميق.

الصباح التالى.. كأن سؤالك وتحديك لى: لماذا لم أصنع قاربًا ولم أفكر فى صنعه.. وسؤالك رغم إجابتى عليه.. جعلنى يا أخى أنهض من النوم ولدىّ رغبة فى التفكير فى أمر هذه المحاولة.. الخروج من هذه الجزيرة.

ثم جلست بعد أن تناولت فطوراً لذيذًا.. كنت أراقب أحد أعشاش الطيور منذ البارحة.. فلما هززته بغصن سقط منه بعض البيض على الرمال.. فألقيت

به فى النار.. وكان البيض المشوى فطورًا شهيًا بحق.. أعطانى فرصة جيدة للتفكير.. وقفت أهرش فى رأسى على الشاطئ وأنا أراقب الموج العتى.. وأفكر فى الطريقة التى يمكننى أن أتحداه بها ثم أفوز بالتحدى.

جلست مكانى متربعًا شاخصًا نحو الماء والموج، وكأن الفلسفة الإنسانية التى تحب دائمًا أن تعلن عن نفسها تدفعنى لإنشاء قناعة بما أنا مقبل عليه وسألتنى:

- ما الحكمة من محاولتك الخروج من هذه الجزيرة؟

فأجبتها على الفور:

- ارجع إلى الناس.. إلى الدنيا.. إلى المباهج.

- وهل فكرت قليلاً أنك حتى الآن تحيا سعيدًا.. تأكل وتشرب وبعد قليل تعد الفراش والسياج أمام

الكهف.. وتقيم لنفسك مطبخًا وتصنع الأوانى والأطباق وتنسج ثيابا وتعبد الله بدون ذنوب تقترفها.

- حقًا.. أنا هنا سعيد.. لكن لا يمكن للإنسان أن يكون وحده هكذا.. لابد من وجود الناس.

- أنت فى نعمة.. العزلة عن الناس تمنعك من شرورهم وتحفظك من أذيتهم.. الجزيرة جميلة.

- أعرف أنها جميلة.. لكن أنا فى حياتى ما عشت وحيدا.. لابد أن أحيا من أجل الناس ونفسى أيضًا.. وإن كان موضوع العزلة مقيدًا، فأولى بى أن أصبر على أذى الناس ابتغاء وجه الله تعالى.

- هناك يا مؤمن نهاية لكل شىء.. حاسبت نفسك على ما مضى من عمرك وتألمت من أجل ذنوبك.. ما رأيك

أن تبقى هنا حتى النهايـة.. وتقبل على الله بعمر طويل بلا أخطاء.

- الشـيطان لـن يدعنى هنا أو هناك.. وقــد أقـصـر فى الطاعة وقد أهمل العبادة مع أنى وحدى وبذلك أكون مذنبا أيضًا.

- الشيطان بدون الناس.. بدون رفيق لك هو أضعف ما يكون.. الشيطان مهمته أن يفرق.. وأنت وحدك هنا.

- يا إلهى.. ومن سيقوم بدفنى عندما أموت.. لا لا لا.. لو أن كل الأشياء بهذه الجزيرة حلوة.. فلن أهدأ حتى أخرج منها.

- لماذا يا مؤمن؟

- لأننى لم أختـــرها برغـبـتى.. وإنما ألـقى بى المحـيط إليها... وهكذا.. على اتساعهـا أعتبرها سجنًا إلى أن أخرج منها..

- إذاً لن تندم فى يوم من الأيام وتتمنى لو بقيت هنا؟
- لا.. لن أندم.. ثم.. ثم إنه يمكننى إذا أحببت أن أرجع إليها أستعيد الذكريات.. لا يا مؤمن.. سأرجع لأمى.. نعم لأمى، أدركت بعد حوارى الهادئ على أنغام الأمواج الهادرة وصخب البحر المحبوب أننى لن أبقى هنا إلى الأبد.. وأننى لا أستطيع التحكم فى عقلى وفى رغبتى الملحة إلى المحاولة من أجل كل شىء وأى شىء. ما خلق الله الإنسان لينعم بطعام وشراب وبيت وطبيعة خلابة.. بل من أجل أن يعمر ويعمل وينتج لكى يتقوى على عبادة الله قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

لا.. أنا لا أحب هذه الحياة.. سأعمل وأنجز.. سأحاول عشرات المرات أن أهزم هذه الأمواج.. مهما

أعادتنى إلى الجزيرة.. هيا يا مؤمن لا تيأس ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ سأحاول حتى الموت. كان قعودى الطويل على الرمل مثقلا لى.. قمت أبحث عن طعام للغداء وصدت سمكًا ثم زدت فى الحطب.. وشويت السمك وأكلت وكلى انشغال بالطريقة التى يمكننى الخروج بها من هذه الجزيرة.

نظرت بعد فراغى من الطعام إلى الأشياء التى كنت سأصنع منها فراشى وغطائى وبابا للكهف وسياجًا أمامه.. وقررت أن لا أهنأ بنوم ولا قرار إلا فى مصر؛ فى بيتنا.. بجانب أمى، وأن تكون هذه الألياف والأحبال بذرة الشراع والقارب.

بالبلطة ها أنا أقطع جذوع الأشجار الرفيعة.. العمل فى قطع الأشجار ممتع ويمد الجسم بالقوة.. ومع أن

أشـجار هذه الجـزيرة ذات جذوع قطرها صـغيـر.. فلم أعثـر حقيقـة على الشجرة الكبـيرة ذات القطر الواسع.. أذكر أننى فى ذات مغامرة صنعت قاربًا من نحت جذور شجرة واحدة.. قمت بتفريغه على هيئة قارب، لكن هنا لم أعثـر على شجـرة بهذا الحـجم.. يلزمنى إذًا تفـصيل قارب للنجاة من أخشاب عدة.

قطعت كـمًـا لا يستـهـان به فى هذا اليـوم.. وبالليل استـمرت عملية جـدل الحبال من الألياف، وهى عـملية مرهقـة وتسبب تشقـقات مؤلمة فى راحـتى اليدين لم لم يكن معتادًا عليها..

***

وهكذا مـرت الليـلة الخـامـسـة على خـيـر.. وفى الصبـاح قسَّمت العمل قـسمين.. من الصبـاح إلى ما

بعد الظهيرة أنزع ما على جذوع الشجر من فروع وأشذ بها، وفى العصر إلى المساء وحتى العشاء أجدل الحبال.

وفى يوم واحد تمكنت بفضل الله تعالى من تشذيب كل الجذوع التى أحتاج إليها.. وقمت برصها أمام الكهف.. وازدحم الكهف ببكرات الأحبال فأخرجتها منه وتركت فيه فقط ما يمكننى بانجازه بالليل.. وأكلت السمك وشربت بشفاطتى الماء من الشق.. وهكذا مرت الليلة السادسة.

***

هل اليوم يوم الجمعة حقًا أم السبت.. بذلت جهدًا كبيرًا فى محاولة تذكر الأيام.. ما هو اليوم الذى سقطت فيه من السفينة فى الماء، وبعد التدقيق والتذكر عدة

مـرات عـرفت أنه يوم الجـمـعـة.. وعندمـا جـاء وقت الظهـيـرة تألمت أننـى لم أتمكن من إقـامـة الشـعـيـرة الأسبوعية.. خطبة الجـمعة.. أنا أجيد الخطابة.. وأحمل فى صـدرى مـواعظ طيـبة.. ومـررت بهـذا الدور عـدة مـرات فى بعض مغـامـراتى.. لكن هل أخطب لنفـسى اليـوم.. لا يصح.. لابد من جـمـاعـة.. صليت الظهـر كالعادة.

وبعـد ذلك تناولت غـدائى ثم فـكرت فى صنع نول كبير يمكننى أن أنسج عليه شراعًا مناسبًا.

النول التقليدى أربعة أضـلاع.. لذلك لم أشأ إضاعة الوقت، فـاتخذت من الأشـجار الطـبيـعيـة القائمـة فى مكانها نولاً وزودتها فقط بضلعين أفـقيين، وكان العمل حماسيًا لدرجة كبيرة.

ربطت الأحبال فى الأضلاع الأربعة.. أحبال أفقية ثابتة ثم قمت بتمرير الأجدال الرأسية بينها.. واستخدمت حيلاً بارعة لإتمام هذا العمل الجبار حتى أتى الليل وأنا منهمك وقد نمت نومًا عميقًا مليئا بأحلام النجاة... ومرت الليلة السابعة.

***

وفى الصباح التالى قمت أنجز بقية العمل.. إننى أعيش منذ حوالى أسبوع فى هذه الجزيرة.. مر علىّ كأنه عام أو أكثر.. لكن الأيام الأخيرة منه مرت أسرع بكثير من الأولى.

وبعد أسبوع آخر...

جاء يوم جمعة آخر.. أنجزت خلال الأسبوع الماضى نسج الشراع فقط.. ويا لها من فرحة أن تنجز عملا كبيراً كهذا.

شراع من الحبال.. منسوج بعناية وجهد.. كنت أعمل فيه ليل نهار حتى أحكم إلصاق الخيوط ببعضها وفى النهاية عقدت أطرافه كلها.. وقصصته من الأشجار فنزل على الأرض كسجادة كبيرة جداً تحتاج لرجلين على الأقل لحملها إذا طويت.. مع أنها إذا بسطت كانت خفيفة.. لكنها طويلة عرضًا وطولاً.

بقى لى أن أصنع القارب.. قررت ألا أصنع له جوانب حتى لا يغرق إذا امتلأ بالماء.. ولنفس السبب أيضًا قررت أن أجعله على شكل طوق سطحى لا يعلوه إلا سارى حر يمكن تثبيت الشراع عليه.. كما أننى سأضع للشراع المستطيل جذعًا من أعلى ومن أسفل ليصبح منشورا، بحيث إذا رفعت السارى منتصبًا يؤدى دوره بأسرع ما يمكن.



وجاءت اللحظات المهمة الأخرى.. ألا وهى ربط الجذوع ببعضها لصناعة الطوق.. كان النهار فى آخره وكان شوقى فى آخره أيضًا.. فرحتى بنسج الشراع أعطتنى راحة كبيرة.. ذلك أنه أصبح من الممكن الخروج من الأمواج المتدافعة بالرغم من أنه لن يكون أمرًا سهلاً.

وفى المساء وعلى ضوء القمر.. سويت ما بين الجذوع ووضعتها فى صف، بعضها فوق بعض، وخطتى أن أنهى العمل فى بناء جسم الطوق غدًا، ثم أودع الجزيرة بعد غد أو بعده إذا تعثرت فى أمر ما.

وكنت فرحًا بمنجزاتى، فأخذت أطوى الشراع كالسجادة وأضعه وأدواتى والأحبال اللازمة فى وضع بحيث يسهل علىّ العمل فى الغد.

دخلت الكهف وجدلت بقية الحبال حيث نفدت كل الألياف التي جمعتها.. وصليت العشاء.. ثم نمت نومًا عميقًا.

تمنيت مرة واحدة لو استيقظت قبل الفجر بفترة أتمكن فيها من صلاة الليل.. فمنذ استضافتي في هذه الجزيرة وأنا لا أصلي الليل.. وأخشى أن أفقد هذه النعمة الكبيرة.. وأخشى أيضًا أن الله لم يعد يرحب بي.. ذلك لعلمي أن من أحبه الله أحب أن يسمع صوته.. كذلك يوفقه لقيام الليل ويفرح به ويمنحه القدرة على المناجاة.

إن مناجاة الله نعمة لا يعطيها الله لكل الناس.. بل يعطيها لخواص الناس.. فمن عرفت أنه يقوم الليل ويدعو الله في الخلوة دون أن يراه أو يسمعه أحد، فاعلم

أن الله يحبه.. منذ فترة لا أقـوم الليل حتى أننى أصبحت أسـتـيـقظ مـع طلوع الشـمس... فليسـامـحنى الله.. ليسامحـنى الله.. أتمنى لو قمت قبل الفجر هذه الليلة.

***

فى الليلة الخامسـة عشرة.. من شدة رغبـتى فى القيام لصـلاة الليـل.. رأيت فى منامى أن الجـبل يـهـتـز بى.. وأصوات الحجارة تتـساقط من أعلى وأن الكهف يمتلئ بالماء.. الماء.. فى الحـقيـقة لم يكن حلمًـا ولا كابوسًـا.. إنهـا الحقـيقـة، فـوجئت أننى عـائم على الماء الذى مـلأ الكهف.. ماء البحر.. وكـان كل شىء يهتز بقوة.. الليل لم يـمكنى مـن رؤية شىء.. زلـزال.. أصـوات تحـطم وهدير كبير.. ورائحة البحر أقرب من كل وقت مضى.. اهتزازات عنيفة.. هل خسف الله بالجزيرة؟

نهضت أتعثر فى الماء.. وقد انطفأت الشعلة.. فلم.. أنا فى الحقيقة.. لا أحلم.. إنها الحقيقة.. يا إلهى.. الزلزال شديد جداً.. ألمح أشباح الحجارة وجذوع الأشجار تسقط من أعلى الجزيرة.. الجذوع.. يا إلهى.. يا ربى.. الشراع.. الجذوع والأحبال.. حاولت الخروج من الكهف.. ولكن فوجئت بموجة عاتية تقتحم المدخل وتصدمنى بقوة وقد امتلأ بها الكهف، وأصبحت كحشرة فى قارورة ترج بالماء رجًا عنيفًا.

حاولت الاعتدال والتمسك بالجدران ومن ثم السباحة للخارج.. لكن عادت موجة أخرى تضربنى.. ولولا عناية الله لامتلأ كل الكهف بالماء ولغرقت لا محالة.. لكن سقف الكهف كان مرتفعًا مع أن الماء يصل لأعلى فتحته.. كانت هناك برهة بين كل موجة

وأخرى.. أحاول فيها الخروج.. لكنها لم تكف أبداً.. في كل مرة يواجهني الماء..

كل ما أفكر فيه هو أجزاء الطوق.. وهي كل ثروتي وكل ممتلكاتي وكل أملي في النجاة.

بقيت على هذه الحال محبوسًا في الكهف أتحمل لطمات الماء وقد يئست من قدرتي على الخروج.. وأمسيت والخوف رفيقي.

بعد ساعات هدأ كل شيء، وانسحب الماء من الكهف وعاد كل شيء إلى حاله.. خرجت مبتلاً مسرعًا إلى أشيائي.

لم يكن هناك أي شيء.. إنها جزء من الجزيرة وقد سقط في الماء.. الألواح والجذوع الخشبية متناثرة هنا وهناك يتلاعب بها المحيط.. المهم الشراع.. أين

الشراع.. لن أتمكن من صنع شراع آخر.. رأيت سوادا في المحيط يطفو ويبتعد.. إنه الشراع.. لم أتمالك نفسى ولم أسمح لها أن يفلت الشراع منى. خلعت قميص وأنا أعدو نحو البحر.. وأخذت أسبح بكل ما أوتيت من قوة.. الأمواج تعوقنى.. أرتد للخلف.. أعاود الكرة مرة ومرة.. أشق الموج مرة.. وأقفز من فوقه مرة وأغطس من تحته مرة، لكن الشراع يبتعد.. رأيته.. كان مفرودًا بلونه البنى من الألياف كأنه فراش وثير.. يبتعد.. ألهث.. أتابع.. أتمنى لو خرجت من منطقة الأمواج.. فلحت فى النهاية.. لكنه مازال يبتعد ويبتعد.. سبحت خلفه.. نظرت خلفى.. فإذا الجزيرة بعيدة كأنها خيال.. أدركت أنها نقطة العودة أو سأدخل إلى نقطة اللاعودة.. قواى خارت تمامًا.. المسافة بينى وبين إنجازى

تبتـعد.. آثرت النجاة.. عـدت أسبح نحـو الجزيرة والماء يمسـح دمع عـينى.. أسـرع الموج بعـودتى.. وصلت للشاطئ وأنا منهك حزين.. كل شىء ضاع.. كل شىء اختفى.. الجـذوع.. الشراع.. الحبال. الأمل الـوحيد فى الخروج والنجاة.

أمـضـيت النهـار فـى حـزن ولم أفكر فـى طعـام ولا شـراب.. بقـيت نـائمًـا علـى الرمـال لأننـى لم أنم منذ الأمس.. قمت عند الظهـيرة.. ولا أملك رغبـة فى عمل أى شىء.. فلما بحثت عن سـمك لم أجد حتى واحدة.. الزلزال عـجـل بفـرار كل حى مـن المكان.. شـعـرت بالعطش.. ذهبت للشق ولشفاطتى فلم أجد هذا ولا ذاك.

تغـيرت مـعالم الجـزيرة كلهـا.. لم أعد أشـعر حـتى برغبة فى البحث عن الماء.. لقد عدت من حيث بدأت..

كأننى اليوم وبعد مرور كل هذه الأيام أصل إلى هذا القفار اليوم فقط.

تسلط الشيطان عليّ.. زاد همى همًا.. بعد كل هذا الجهد .. وهذا الصبر والعمل.. أجدنى خاوى الوفاض.. تألمت .. لكن قلبى صاح فيَّ - ماذا دهاك يا مؤمن.. أهكذا تستقبل الامتحان.. البلاء.. أين العزم والعزيمة.. هل نسيت أن المؤمن لا يعجز ولا يحزن ولا يقنط من رحمة الله.. استغفرت ربى.. وغربت الشمس.. أحسست بالبرد.. فعدت إلى الكهف.. وتذكرت أن حالى لا يختلف كثيراً عن حال جرو أو وحش من وحوش الغابة يحيا للأكل والشرب ثم ينام بالليل فى جوف كهف.. كانت حالتى سيئة للغاية.. ونمت وأنا أتذكر أمى.. حين تغطينى من البرد بالليل..

وهى تضع راحتها الدافئة الجميلة على جبهتى.. أو حين تأتينى بشراب دافئ.. أو بطعام شهى، وتدعو لى.. بكيت ثم نمت فى الليلة السادسة عشرة.

ونهضت قبيل الفجر.. تيممت وقمت الليل.. رغم كل هذا الألم قمت أتهجد لربى كى أشكره على نعمه العظيمة.. أما ما أنا فيه فهو ابتلاء واختبار وإن شاء الله سيأخذ بيدى وينجينى مما أنا فيه وبدأت أصلى وقمت بتكبيرة الإحرام وتلوت القرآن.. الصوت داخل الكهف له رنة عجيبة وله هيبة ورهبة.. كأن القرآن الذى أقرأه يرتد إلى جسدى فيتغلغل فيه عبر كل مسام جلدى.. ثم صليت الفجر.. وعدت أسبح الله تعالى، ثم قرأت القرآن مرة ثانية حتى بكيت.. ليس حزنًا ولا خوفًا على الدنيا.. بل لأننى أدركت أن الله تعالى مازال يحب أن يسمع صوتى..

وكانت فرحتى لا تدانيها فرحة.. فرحة العودة لله.

وسطعت شمس الصباح.. وخرجت من باب الكهف لا ألوى على شيء.. ولكنى صرخت من المفاجأة.. وقفزت من باب الكهف مباشرة إلى الرمال.. كل شيء قد عاد.. الشراع.. الجذوع كلها.. الحبال.. كل شيء ألقى به الموج مرة أخرى إلى الشاطئ.. الجذوع كلها متجمعة تتخبط وهى تطفو على ماء الشاطئ.. الشراع يتهادى هناك.. الحبال كلها منتشرة هنا وهناك.

جريت وأنا أحمد الله تعالى، وقفزت فى الماء وأخذت أسحب الشراع إلى الرمال.. ومن ثم سحبت الجذوع الواحد تلو الآخر.. لا أصدق ما أنا فيه.. كلما تذكرت وأنا أعدو سابحًا لأستعيد الشراع أضحك من نفسى.. ها هو قد عاد وحده الآن.. لابد أن أنجز العمل بأسرع ما يمكن.

فى كثير من محاولات الأشخاص الذين يتعرضون لظروف مماثلة يكتفون بربط الجذوع بعضها إلى بعض

بالأحبـال والألياف.. ثم لا يفتأ الطوق أن يتـحلل بفعل الماء والأمواج العاتية.

أفضل طريـقة لربط مجـموعـة من الأخشـاب مثل هذه الجذوع فتكون بتعشيق الخشب بعضه ببعض وتفريغ ثقوب فى الجذوع الكبيرة ثم حشر الجـذوع الصغيرة بها... فهكذا تحـصل على شبـاك من الخشب لا يـسهل تحطيـمه.. وبعـد ذلك تقويه بالأحبال... ثم تطلقه فى الماء مع مجداف قوى.

رسمت علـى الرمل الطريقة التى سـأجهز بـها الطوق.. وبالمطرقـة والصـخـور المدببـة قـمت بـالنحت فى الخـشب وتفريغ الثقـوب... كل لوح من الألواح الطويلة يحتاج إلى ثلاثة ثقوب... اثنان على طرفيـه وواحد فى المنتصف... ثم تضع كل الألواح بجـانب بعضهـا البعض وتحضـر الجذوع الرفـيـعـة وتدخل واحـداً واحـداً فى الثـقـب الطرفى لكل الألواح المتراصة فى الثقب الأوسط ثم الثقب الطرفى الآخر

لكل الألواح المتراصة.. وتحكم هذه العملية، ثم بالحبال تغطى جميع الأطراف ولا تقلق، ثم تحضر سارية الشراع وتجهز لها قاعدة محورية فوق الطوق يمكنك تحريكها لأعلى ولأسفل كالرافعة وتربط فيها الحبال اللازمة.

أمضيت فى هذا العمل النهار بطوله... وبالليل أشعلت نارًا كبيرة ورفضت النوم تمامًا... قمت بتعشيق الجذوع والألواح.. وأقمت سارية الشراع... وصنعت مجدافًا مربوطًا بقوة للطوق... وعند طلوع الشمس كنت أحاول تثبيت الشراع على الأحبال.

ولم أنم بالمرة... ولم أعد أهتم بالطعام الذى لم أتذوقه منذ الأمس، لا هو ولا الماء... كنت منهمكًا؛ لا أفكر إلا بإنجاز ما بدأته.. وربطت الحبال بالشراع، ثم أخذت أرفعه شيئًا فشيئًا حتى بدا الطوق جاهزًا للإقلاع.

الوقت بعد الظهر بقليل... ولو دفعت الطوق إلى الماء فلا عودة للجزيرة... ماذا سأحمل معى من زاد... لا ماء ولا طعام.

تنفست الصعداء وقد أصبحت جاهزًا للرحيل.. مع أننى أشعر بالجزيرة تشدنى إليها شداً.

صليت الظهر ثم عنَّ لى أن أبحث عن بعض الأسماك والسراطين كى أحملها معى فى كيس صنعته سريعًا من الألياف. هناك بعض الأسماك البعيدة عن الشاطئ، وقفت انتظر قدوم إحداها... لكن صوتًا قال لى... ماذا تفعل... أمازلت تقف تنتظر السمك وتضيع النهار... اذهب يا مؤمن. تركت الشوكة ثم جريت ثم عدت وحملتها وجريت إلى الطوق وقد طويت الشراع.. جذبته ودفعته حتى لامس الماء وطفا عليه فقفزت إليه... وأمسكت جيداً بأحبال عرضية جهزتها لأمسك بها عند وجود الأمواج.

بدأ الطوق يتـأرجح على المـوج... سـحبت حـبل الشراع... فـردت الشراع الجـميل وربطت طـرف الحبل وأخذت أوجه الطوق بدفة صغيرة فى الخلف.

وكأن الموج يرفض خروجى... ولكن الشـراع يقاومه بقوة... يرتفع الطوق لأعلى ثم يكمل المشوار ويعلو من موجة فوق موجة.

كنت أنظر لآخـر مـوجـة وأنا أبتـسـم... بعـد ذلك سيكون الإبحار هادئًا وسلسًا.

نظرت خلفى إلى الجـزيزة بعـد أن عبـرت آخر تيـار الرجعـة... كانت كـأنها تبكى حـزنًا على فراقـى لها... وتناديـنى لأرجع... تنادى وتنادى. لـم أشـأ أن أحـفظ مكانها ولا أسـأل بعد ذلك عن اسمـها. ولم أجبـها، بل فرحت وأنا أتقـدم بطوقى البسيط... نـظرت لنفسى، لم

أنم منذ الأمس... ليس معى طعام ولا شراب.. فقط شوكة...أتعشم أن أصيد سمكة أسد بها جوعى... ولكنى لا أخبرك عن شعورك إذا كنت جائعًا للنوم... فى وسط المياه... وتحت أشعة الشمس... وأنت جائع عطشان... لن يحلو لك شىء بقدر أن تنام.

انبطحت على بطنى ممسكًا الشوكة محملقًا فى الماء عسى أن تمر سمكة فأغرس فيها الشوكة... ألم بى الجوع لدرجة أننى على استعداد كى آكل أى شىء.. أى شىء.. لم أر سمكًا.. لم أر أى شىء.. أحتاج للنعاس.. رأسى ثقيلة... الشمس الدافئة تدفعنى للنوم... أنفاسى ساخنة جدًا تخرج زفيرًا مسكرًا بالنوم.

- مؤمن... مؤمن... هل نمت؟

- خوخوخو..



- مــؤمن.. ســتنـام من جــديد وأنت قــريـب من الماء هكذا؟... مؤمن... احذر ستسقط فى الماء... مؤمن... أنت نائم فى الماء... الطوق يبتعد... مؤمن..

- خوخوخو.

- لقد ضاع الطوق يا مؤمن... استيقظ يا مؤمن.

- هه... من؟.. الأسـتاذ عـلاء؟... يا إلهى... أين أنا.. أين الطوق؟..

- نمت يا مؤمن وسقطت فى الماء مرة ثانية.

- لا.. أرجـوك يا سيـدى... افعل أى شىء... لم أعـد أقوى على تكرار التجربة.

- أشفق عليك حقًا.. لا تقلق... انظر هناك... هناك.

- يا إلهى... يـا إلهى... إنهــا سـفـيـنة... سـفــينة... النجدة... النجدة.

مـفاجـأة عظيـمة... لم أتصـور أن المؤلف سيفـعل هذا بى... إنها نفس السـفينة التى سـقطت من عليها قـبل ما يزيد عن أسـبـوعـين... عـثـروا علىّ ورمـوا لى حـبـلاً وأنقذونى... وقال لى أبو الحسن وهو فى فرحة غامرة:

- الحـمـد لله يا مؤمـن.. كدنا نـفقـد الأمل فى العـثـور عليك.. القبطان لم يشأ العودة للميناء بدونك.

- ياه... الحمد لله... الحمد لله... إخوانى... أنا جائع... عطشـان. أحـضروا لى المـاء والطعام... شـربت مـاءً كـثـيـراً ولم آكل شـيـئًـا.. وأردت الـنوم وطلبت أن يفسحوا لى مكانًا آمنًا للنوم... لا أسقط منه إلى الماء.

تمت بحمد الله تعالى

***